الفصل الثالث

الصبْر والثبات في مُواجَهَة الابْتِلاء

الصبر والثبات فى مواجهة الابتلاء

■ الابتلاء سنة إلهية:

حين خلق الله تعالى الحياة والأحياء في هذه الدار؛ اقتضت حكمته سبحانه أن تكون حياتهم مزيجًا من السعادة والشقاء، والفرح والترح، والأنس والوحشة، والسعة والضيق، واللَّذَّة والألم، يستوي في ذلك في الجملة جميع الناس؛ سواء كانوا مؤمنين أو كفارًا، سادة أم سوقة.

وما من إنسان – أيًّا كان–؛ إلا وفي حياته أيام من هذا، وأيام من ذاك؛ فالدار الدنيا يختلط فيها الضحك بالبكاء، والحزن بالسرور.

وقد حسب أحد الخلفاء العظام ممَّن امتدَّت أيام خلافته؛ حسب أيام السرور في خلافته، فكانت أربعة عشر يومًا فقط!!

والكوارث الدنيوية؛ في النفس، أو في الولد، أو في المال؛ قاسم مشترك بين جميعِ الأحياء، ولولا الآلام؛ لما وجد الناس طعم اللَّذائذ، فألم الحرمان هو سر اللذَّة بالوجدان، وألم الجوع هو سر اللذَّة بالشبع، وألم الفراق هو سر اللذَّة باللقاء.

وهذه النظرة الصحيحة هي التي حرص الإسلام على ترسيخها في أذهان المؤمنين.

قال تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَمَا الحَيَاةُ الدنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ في الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُم**

يَهيجُ فَتَراهُ مُصْفَرا ثُم يَكُونُ حُطَامًا)(١).

ولهذا يحرص الكافر الذي ينتهي نظره عند هذه الدار الممزوجة لَذَّاها بالغُصص على أن يعبَّ منها ما استطاع؛ لأها فرصته الوحيدة، فيسكر بخمر اللذَّة والشهوة، ثم يسكر، وهو ينادي:

سَمِعْتُ صَوْتًا هَاتفًا في السَّحَرْ
نَادَى مِنَ الحَان غُفَاةَ البَشَرْ

هُبُّوا امْلَؤوا كَأْسَ الطُّلَى قَبْلَ أَنْ
تَفْعَمَ كَأْسَ العُمر كَفُّ القَدَرْ

أَفِقْ وهَات الكَأْسَ أَنْعِمْ بها
واكْشِفْ خَفايا النَّفْسِ مِن حُجْبِها

ورَوِّ أوْصَالي بها قبْلَمَا
يُصاغُ دنُّ الخَمْرِ مِنْ تُرْبِها(٢)

ويَفْرَق من بلوائها وعنائها، ويضيقُ بها، فتمتلئ نفسه اكتئابًا، ويمتلئ قلبه حسرة، وتنتهي حياتُه نهاية يائسة محطَّمة أليمة؛ دون أن يدري لماذا ابتدأت؟ وتسيطر عليه وحشة الفناء، فيقول:

أَوَراءَ القَبْرِ بَعْدَ المَوْتِ بَعْثٌ ونشورُ؟!
فَحَياةٌ فَخُلودٌ أَمْ فَنَاءٌ ودُثُورُ؟!
أَكَلامُ النَّاس صِدْقٌ أَمْ كَلامُ النَاسِ زورُ؟!
أصَحيحٌ أنَّ بَعْضَ النَاسِ يَدْري؟!
لَسْتُ أدْري(٣).

أما المؤمن؛ فتدعوه النظرة الصادقة المتَّزنة للدُّنيا إلى أن لا يجزع عند المصيبة، ولا ييأس عند الضائقة، ولا يبطر عند النعمة، وأن يقتصر من متاعها على المُباح؛ طلبًا للمتعة الكاملة الدائمة عند الله في الدار الآخرة.

ولاختلاف التصوُّر والنظرة بين المؤمن والكافر، ثم اختلاف المنهج والطريق؛ صارت الحياة صراعًا بين هذين المنهجين، فيُبْتَلى هذا بهذا، وهذا بهذا؛ فالمؤمنون يُبْتَلَوْن بالكفار، والكفار يُبْتَلَون بالمؤمنين.

وهذا النوع من الابتلاء -وهو ابتلاء العباد بعضهم ببعض- هو أيضًا قاسم مشترك بين المؤمنين والكافرين؛ كما قال تعالى: (**ذلكَ ولَوْ يَشاءُ اللهُ لانْتصَرَ مِنْهُمْ ولكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْض**)(٤).

وقال: (**ولَوْ شَاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّناتُ ولكِن اخْتَلفوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ومِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ولَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتلوا ولكِن اللهَ يَفْعَلُ مَا يُريدُ**)(٥).

وفي الحديث القدسي: أن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: "**إنما بعثْتُك لأبتليك وأبتلِيَ بك**"(٦).

والله تعالى يُداوِل الأيام بين الناس بحكمته، فيُديل للمؤمنين من الكفار تارة، ويُديل للكفار من المؤمنين تارة، ويجعل الكفار تحت سلطة المؤمنين وقهرهم حينًا، ويجعل المؤمنين تحت قهر الكفار وتسلُّطهم حينًا آخر، والدَّهر هكذا.

ولكن المؤمن يتميَّز بمعرفته أن هذا البلاء الذي لقيه من أعدائه -من الكفار والمنافقين والفاسقين-؛ إنما هو بسبب التزامه بهذا الدين، وصبره

عليه، ودعوته إليه، وهو يؤمن بأنه دين الله الذي ارتضاه لعباده كلهم، ولن يقبل منهم سواه.

ولهذا يكون البلاء الذي يلقاه المؤمن في سبيل هذا الدين أثرًا من آثار الاستقامة على المنهج، وهذا يجعل المرء بين موقفين:

الموقف الأول: النكول والتراجع عن هذا الطريق الذي سبَّب له هذه الآلام، وعرَّضه لهذه المِحن، وهذا حال صنف من الناس وصفهم الله في كتابه:

فقال سبحانه: **(ومِنَ الناسِ مَنْ يَقُولُ آمنا باللهِ فإذا أُوْذِيَ في اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ الناسِ كَعَذابِ اللهِ)**(٧).

وقال سبحانه: **(ومِنَ الناسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلى حَرْفٍ فإنْ أصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأن بِهِ وإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدنْيا والآخِرَةَ ذلكَ هُوَ الخُسْرانُ المُبينُ)**(٨).

فيقول: لو كان هذا الدين خيرًا؛ لما تسبب في حرماني من وظيفتي، أو مصادرة حريتي، أو كساد تجارتي، أو فراق زوجتي، أو سجني، أو قحط أرضي، فيفرق ويترك الطريق.

الموقف الثاني: هو موقف الصبر والإصرار والثبات مهما تطلَّب الصبر من الجهود والتَّضحيات، ومضاعفة الصبر كلما تضاعفت الآلام، والاستمرار على هذا الصبر مهما طال الزمان؛ تحقيقًا لمعنى قول الله تعالى: **(يَا أيهَا الذينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورَابِطُوا واتقُوا اللهَ لَعَلكُمْ تُفْلِحُونَ)**(٩)، فهو سبحانه وتعالى قد أمر بالصبر، ثم بالمصابرة - وهي مقابلة صبر الآخرين والتغلُّب عليه -، ثم المرابطة والصبر على الصبر!

وهذا موقف المؤمنين الصادقين في عقد الإيمان، الذين لا تزيدهم المحن؛ إلا إيمانًا بالله، وتسليمًا له، وتصديقًا بوعده ووعد رسوله؛ كما قال تعالى: **(ولما رَأى المؤمِنونَ الأحْزابَ قالوا هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورَسولُهُ وصَدَقَ اللهُ ورَسُولُهُ وما زَادَهُمْ إلا إيمانًا وتَسْليمًا)**(١٠).

ولتميُّز مدَّعي الإيمان إلى هذين الموقفين المتباينين؛ سمَّى الله عزَّ وجلَّ الابتلاء فتنة، فقال: **(الم ▪ أحَسِبَ الناسُ أنْ يُتْرَكُوا أنْ يَقُولوا آمَنا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ ▪ ولَقَدْ فَتَنا الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَن اللهُ الذينَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَن الكاذِبينَ)**(١١).

والفتنة: الامتحان والاختبار؛ يقال: فَتَنْتُ الذهبَ بالنار؛ إذا: امتحنْتَه، وقيل: الفَتْنُ: هو الإحراق، وشيء فَتين؛ أي: مُحْرَق(١٢).

فعلى وهج النار الملتهبة -نار الفتنة بجميع أنواعها- تتميَّز معادن الناس، فينقسمون إلى مؤمنين صابرين، وإلى مدَّعين أو منافقين، وينقسم المؤمنون إلى طبقات كثيرة؛ بحسب شدة صبرهم وقوَّة احتمالهم.

ومن رحمة الله بعباده المؤمنين أن يسلِّط عليهم البلاء، ثم يرزقهم الثبات؛ لينالوا عنده الأجر العظيم.

وهو سبحانه يربيهم بالمحن والشدائد، ويصفِّي قلوبهم من الدَّخَل والدَّغَل والغش، وكلَّما خرجوا من محنة أو فتنة بالصبر والثبات والإصرار؛ قيَّض لهم أخرى أشدَّ منها؛ بعد أن وَعَوا درس المحنة الأولى، وأفادوا منه، وارتقى مستوى إيمانهم ويقينهم.

ولو أنهم ابتُلُوا بالمحنة الآخرة أولاً؛ لربَّما ضعفوا أو تزعزعوا، ولكنَّ الله تعالى يدرِّجُهم فيها صُعُدًا؛ لِيَتَنامى إيمانُهم ويقوى ويزداد.

وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المعاني لأصحابه بيانًا قويًّا مكرَّرًا في مناسباته؛ لأنهم كانوا في أشد الحاجة إليه، حيث إنهم حملة رسالة الإسلام أول مرة، والمضحِّين في سبيلها، والمبتَلَيْن من أجلها، وكانوا -مع هذا- أحب الأمم إلى الله، وأقربها إليه زلفى، وأعظمها عنده قدرًا.

عن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه؛ قال: قلت: يا رسول الله! أي الناس أشدُّ بلاء؟ قال: **"الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيُبْتَلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينُه صلبًا؛ اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة؛ ابْتُلِي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة"** (١٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ قال: دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوعَكُ(١٤)، فوضعتُ يدي عليه، فوجدتُ حرَّه في يدي فوق اللحاف، فقلتُ: يا رسول الله! ما أشدَّها عليك! قال: **"إنا كذلك؛ يُضَعفُ لنا البلاء، ويُضَعف لنا الأجر"**. قلت: يا رسول الله! أيُّ الناس أشد بلاء؟ قال: **"الأنبياء"**. قلت: يا رسول الله! ثم مَن؟ قال: **"ثم الصالحون، وإن كان أحدهم ليُبْتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يُحَويها(١٥)، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء"**(١٦).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه بنحو القصة، وفيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"إني أوعك كما يوعَكُ رجلان منكم"**. فقلتُ (أي: ابن مسعود): ذلك أنَّ لك أجرين؟ قال: **"أجل؛ ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبُه أذى؛ شوكةٌ فما فوقها؛ إلا كفر الله با سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها"**(١٧).

وعن أبي عُبيدة بن حذيفة عن عمته بنحوه، وفيه: فأمر بسقاء، فعُلِّق بشجرة، ثم اضطجع تحته، فجعل يقطر على فؤاده؛ قال: **"إن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل"**(١٨).

والفتنة تأخذ صورًا شتَّى:

- منها: أن يتعرَّض المؤمن للأذى من الباطل وأهله، ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه، ولا القوة التي يواجه بها الطغيان.

- ومنها: فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه وهو لا يملك عنهم دفعًا، وقد يهتفون به ليسالم أو يستسلم ويحفظهم في قرابتهم.

- ومنها: فتنة إقبال الدنيا على المبطلين، وتعظيم الناس لهم، وهو ملء سمع الدنيا وبصرها، وهو مهمَل منكَر لا يحس به أحد، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليل من أمثاله من الغرباء الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئًا.

- ومنها فتنة الغربة في البيئة، والاستيحاش بالعقيدة، حين ينظر المؤمن فيرى كلَّ ما حوله ومَن حوله غارقًا في تيَّار الضلالة، وهو وحده موحشٌ غريب طريد!

- ومنها فتنة ظهور الأمم الكافرة المنحلَّة الغارقة في الرذيلة، ورقيها في مجالات الحضارة الماديَّة رقيًّا هائلاً، وهي مع ذلك كافرة محادَّة لله(١٩).

- وهناك فتنة إبطاء النصر عن المؤمنين، وتعرُّضهم للأذى والضرب والتنكيل والقتل والتشريد على أيدي أعداء الله، وهم يجأرون إلى الله بالدعاء بالتفريج والنصر، فلا يلوح لهم في الأفق بارقة من الفرج القريب.

قال تعالى: **(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنةَ ولَما يَأْتِكُمْ مَثَلُ الذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأسَاءُ والضراءُ وزُلزِلُوا حَتى يَقُولَ الرسُولُ والذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ ألا إن نَصْرَ اللهِ قَريبٌ)**(٢٠).

إن المؤمن؛ كلما ازداد تمسُّكه بهذا الدين، وصبره على تكاليفه؛ ازدادت -تبعًا لذلك- شدَّةُ الابتلاء والفتنة عليه من قِبل أعداء هذا الدين، حتى ينتصر هذا المؤمن بأي صورة من صور النصر، أو ينتصر الأعداء بزحزحته عن دينه، أو فتنته عن بعض شرائعه، ولا انتصار لهم إلا بهذا.

إن الابتلاء سنَّة إلهية جارية على حَمَلَة الدعوات منذ فجر التاريخ، ولابدَّ أن يدرك الدُّعاة أن طريق النصر وحُسْن العاقبة يمرُّ بالابتلاء والمِحَن والشَّدائد، والنصر الرخيص لا يجيء، وإن جاء لا يدوم.

فالمراحل التي تمرُّ بها حياة المؤمنين المجاهدين؛ من العلماء والدُّعاة؛ ممَّن صدقوا في دعوى الإيمان، واستحقُّوا أن يمنَحَهم الله أمانة قيادة البشرية بالإسلام؛ هي: الابتلاء، ثم الصبر، ثم العاقبة.

وقد قيل للشافعي: أيُّها أفضل للرجل: أن يمكَّن أو يُبْتَلى؟ قال: "لا يَمكَّن حتى يُبْتَلى".

وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه في قصة المحادثة بين أبي سفيان وهرقل: "سأل هرقل أبا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قال: الحرب بينَنا وبينَه سجالٌ، يُدال منا، ونُدال منه...".

ثم قال هرقل في آخر الحديث: "سألتك: كيف كان قتالكم إياه؟

فزعمتَ أن الحرب سجال ودول؛ فكذلك الرُّسل؛ تُبْتَلى، ثم تكون لهم العاقبة"(٢١).

إن الرسل ابتُليَت فصبرت على البلاء حتى أتاهم نصر الله، وهذه سنة الله التي لا تتبدَّل: **(ولَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتى أَتاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدلَ لِكَلِمَات الله وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ المُرْسَلينَ)**(٢٢).

أما المتعجِّلون، الذين يُريدون خضوع القدر لهوى نفوسهم؛ فهم قد فقدوا الصبر أصلاً، فلا يأتيهم النصر، حتى تطمئنَّ قلوبهم إلى قدر الله، وتستسلم لحكمه، وإن ظلَّت على ما هي عليه؛ فلتصنعْ ما تستطيع:

(وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا في الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا في السمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلى الْهُدَى فَلا تَكُونَن مِنَ الجَاهِلينَ)(٢٣).

■ أهمية الصبر على الابتلاء وأثره في دفع الغربة:

الصبر في اللغة: الحبس، تقول: صبرتُ نفسي على ذلك الأمر؛ أي: حبستُها(٢٤).

قال الشاعر:

فَصَبَرْتِ عَارِفَةً لِذلِكَ حُرَّةً
تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ(٢٥)

ومعنى الصبر المشروع: حبس النفس عن الجزع والتسخُّط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش(٢٦).

وهو ثلاثة أنواع: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبرٌ على امتحان الله(٢٧).

ومعنى النوعين الأوَّلين -وهما الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية-: الثبات على الدين؛ فعلاً للمأمور، وتركًا للمحظور، واستمرارًا على ذلك؛ بحيث لا تصرفه عنه الصوارف، وهما أكمل وأعظم من النوع الثالث، إذ إن صبر المرء فيهما بإرادته واختياره؛ فقد تَعْرِض له الفتن والمغريات التي تدعوه إلى المعصية وتزيِّنها له، وتَعْرِض له الحوائل والعقبات التي تثبِّطُه عن الطاعة وتوهِنُ عزمَه عن فعلها، فيتغلَّب على هذه وتلك، ويفعل الطاعة، ويترك المعصية؛ بإرادته واختياره.

ولذلك كان صبر نبي الله يوسف عليه السلام عن امرأة العزيز ورفضه للاستجابة لها أعظمَ وأكملَ من صبره على كيد إخوته وما صنعوا به من الأذى(٢٨).

والفئة المؤمنة -وفي مقدمتها الطائفة المنصورة المغتربة- مطالَبة بأنواع الصبر الثلاثة، خاصة وأن هذه الأنواع قد تتداخل فتصبح لحمة واحدة، وذلك حين يستطيع أعداء الإسلام إلحاق الضرر بالمؤمنين أو ببعض أفرادهم؛ بالقتل، أو الضرب، أو التشريد، أو الإخافة، أو سلب الأموال، أو قتل الأولاد والأزواج... ونحو ذلك.

فها هنا يكون هذا الأمر القدَري الواقع الذي لا حيلة للإنسان في دفعه ناتجًا عن الصبر على الطاعة والثبات عليها، والصبر عن المعصية والعزوف عنها؛ فهو صبر على القدر النازل، وهو أيضًا صبر على الطاعة والإيمان والاتباع، إذ لو تخلَّى المؤمن عن دينه، ووافق هؤلاء

الكفار ومَن في حكمهم فيما هم عليه؛ لسالموه وتاركوه؛ بل والَوْه وصاحبوه ودفعوا عنه بما يستطيعون.

وربما نزل بالمرء نازلة بسبب دعواه الإيمان، فسخط، وجعل فتنة الناس كعذاب الله، وانقلب على وجهه، فخسر الدنيا والآخرة.

مع أن الإنسان لا ينفكُّ عن أذى الناس وضرِّهم؛ فإنه إذا ارتدَّ وانحرف وانحاز إلى صفِّ الكافرين أو الفاسقين؛ تعرَّض للضَّرر والإهانة والقتل وسلب المال بأيدي المؤمنين المجاهدين:

فمَن لم يصبر على الأذى في طاعة الله، واختار المعصية؛ كان ما يحصل له من الشر أعظم مما فرَّ منه بكثير.

ومَن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله، واختاره على الكرامة والعز في معصية الله ؛ كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وانقلب ما ناله من الأذى نعيمًا وسرورًا؛ كما ينقلب ما يحصل لأرباب المعصية من التنعُّم بالذنوب حزنًا وثبورًا.

ولذلك صار الصبر من الدين بهذه المنزلة، إذ إن أصل الصبر لا يستغني عنه مسلم ألبتَّة؛ فهو محتاج إلى الصبر الذي يعينه على الدخول في الإسلام، وتحمُّل ما يلقى في هذا السبيل، ومحتاجٌ إلى الصبر الذي يعينه على المضيِّ في طريق الإيمان، والاستمرار والثبات على ما هو عليه، فإذا لم يصبر؛ أوشك أن يدع دينه لأهواء الخلق المناقِضة لشرع الله.

فمن لم يكن عنده صبر ألبتة؛ فكيف يكون عنده إيمان؟!

وتزداد حاجة المرء إلى الصبر كلَّما ارتقى في مدارج الإيمان والعبوديَّة

والجهاد؛ لشدَّة التكاليف، وثقل وطأتها على الإنسان، وكثرة ما يلقاه في هذا السبيل من المُعَوِّقات.

وكلَّما فسدت الحياة، وأسِن المشرب، واستحكمت غربة الدين؛ كان المرء أحوج إلى الصبر، حتى تأتي أيام الصبر التي ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه، حيث قال: "**إن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله**". قال: يا رسول الله! أجر خمسين منهم؟ قال: "**أجر خمسين منكم**"(٢٩).

ومن الواضح أن هذه الأيام نُسِبت إلى الصبر؛ لشدة الحاجة إليه فيها، وكثرة المحن والشدائد والفتن التي تستدعي الصبر:

- الصبر على الدين: بمعنى الثبات عليه، وعدم التراجع أو الضعف أو التردُّد.

- والصبر على الدعوة، والجهاد، والإنفاق في سبيل الله، وسائر الأعمال التي تحتاجها الدعوة إلى الله من التضحية بالنفس أو المال أو غير ذلك.

- والصبر على أذى المشركين والمنافقين والفاسقين، فلا يُخْرِج ذلك الإنسانَ عن طوره، ولا يدعوه إلى التسرُّع أو التهوُّر أو الاستعجال؛ بل يظلُّ على منهجه الذي آمن به واطمأنَّ إليه، ولا يستجيب لاستفزاز الذين لا يوقنون.

- والصبر على ما يلقاه داخل الصف المؤمن من النقائص والمآخذ والعيوب؛ فإن الأمة المنهزمة يدبُّ الداء فيها إلى كل شيء، وقلَّ أن نجد فيها شيئًا مستويًا، ومن المعتاد أن يجد الداعية: تخلخلاً في الصفوف، أو

ضعفًا في العزائم، أو ضعفًا في الاتِّباع، أو إخلادًا إلى الراحة، أو تناقضًا في الجهود... أو ما شابه ذلك، فيكون دأب الصابر العمل على الإصلاح وتلافي العيوب ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

- والصبر عن المعاصي التي تنتشر وتفشو، حتى ليصبح التحرُّز منها أمرًا صعبًا، يحتاج إلى جهد جهيد وبذل وعناء.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى تفاقم الأمر، واشتداد الغربة، حتى ليكون المتمسِّك بالسنة، الصابر على الدين؛ مثل الممسك بالجمر، يشعر بمرارتها وإحراقها، ويهمُّ في كل لحظة بتركها وإلقائها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"يأتي على الناس زمان؛ الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر"**(٣٠).

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه مرفوعًا: **"إن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر..."**(٣١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ويلٌ للعرب من شر قد اقترب؛ فِتَنًا كقطع الليل المظلم؛ يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، يبيع قومٌ دينهم بعَرَض من الدنيا قليل، المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر** (أو قال: **على الشوك)**(٣٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: "**يأتي على الناس زمان؛ المتمسك فيه بسنتي عند اختلاف أمتي كالقابض على الجمر**"(٣٣).

قال القاري(٣٤): "الظاهر أن معنى الحديث: كما لا يمكن القبض

على الجمرة؛ إلا بصبر شديد، وتحمُّل غلبة المشقَّة؛ كذلك في ذلك الزمان لا يُتَصَوَّر حفظ دينه ونور إيمانه إلا بصبر عظيم وتعب جسيم"(٣٥).

وقد طبَّق الإمام الشاطبي(٣٦) هذا المعنى الذي دل عليه الحديث على زمانه، فقال:

"وهذا زمانُ الصَّبْـــرِ مَنْ لَكَ بالَّتي
كَقَبْضٍ عَلى جَمْرٍ فَتَنْجُو مِنَ البَلا"(٣٧)

قال الجعبري(٣٨): "أي: هذا الزمان زمان الصبر؛ لأنه قد أُنْكِر المعروف، وعُرِف المنكر، وفسدت النيَّات، وظهرت الخيانات، وأوذي المحق، وأكرم المبطل، فمَن يسمح لك بالحالة التي لزومها في الشدة كالقابض على جمر النار"(٣٩).

وهذه الحال التي ذكرها الجعبري عن ذلك الوقت ما زالت في تفاقم وازدياد وتوسع، حتى آل الأمر إلى انحراف شامل في الأوضاع كلها في هذا الزمان، وإلى اندراس السنن وانطماسها، وإحياء البدع، واستعلاء أهلها، وصار الكثيرون في عماية عن دينهم؛ لا يفرِّقون بين الحق والباطل، والمنكر والمعروف، والسنة والبدعة، والشريعة والهوى، وأخلد كثير من العالمين والعارفين إلى الدَّعة والراحة، وتسرَّب اليأس والوهن إلى نفوسهم، فما عادوا يطمعون في إصلاح الأوضاع واستدراكها، وظنَّ بعضهم أنهم في الزمن الذي يعذرون فيه بترك الأمر والنهي؛ لأن الأمر والنهي في ظنهم لم يعد مجديًا، والذكرى لم تعد نافعة.

وفي مثل هذا الحال يتأكَّد الصبر، ويتحتَّم، ويصبح من أوجب الواجبات؛ لأنه بالنسبة للمسلم العادي ضرورة لحفظ إسلامه، وحمايته من

الردَّة التي تطلّ برأسها: على صورة مبادئ ومذاهب إلحاديَّة، أو على صورة موجات تشكيكيَّة، أو على صورة انحراف في الحياة الماديَّة، وتخلٍّ عن الشعائر، وغفلة عن المعتقدات... أو على أي صورة أخرى.

والصبر بالنسبة للمسلم المنتسب للفرقة الناجية ضرورة؛ للسبب السابق ذاته، ولسبب آخر، وهو: حفظ نقاء عقيدته، وصفاء إيمانه، واتباعه للسنَّة، وحمايته من الوقوع في البدع العملية والاعتقادية، وبقائه حريصًا على أن يكون على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

والصبر بالنسبة للمسلم الحريص على القيام بواجب الدعوة إلى الله، ونشر العلم الشرعي، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتصدِّي لفروض الكفايات العامة الضرورية لحياة الأمة، ممَّن يحرص على الاتصاف بصفات الطائفة المنصورة والتميُّز بخصائصها؛ الصبر بالنسبة لهؤلاء ألزم وأوكد؛ للسببين السابقين ذاتهما، ولسبب ثالث، وهو أن هذا المسلم لم يقنع بصلاح نفسه وتقويمها على الجادة؛ بل نذر نفسه: لإصلاح الأمة، وتقويم أودها، وتجديد دعوتها إلى المنهج الصحيح، وإلى الكتاب والسنة وطريقة السلف الصالحين، في زمن غربة، المُعين فيه على الخير قليل، ولهذا ينتصب له أعداء كثيرون:

* **منهم الحكام** المحادُّون لله ورسوله، النابذون شرع الله وراءهم ظهريًّا، وهم يحاربون السنة وأهلها؛ لعلمهم أن التمسُّك الصحيح بالإسلام:

- يهب أهله من الاستعلاء والعزة الإيمانية والتحرُّز من ذلِّ العبودية للمخلوقين أو الخوف منهم ما يحملهم على ردِّ الباطل على أهله ولو كانوا هم السادة والقادة.

- ويجعلهم أمة واعية متميِّزة؛ عارفة بحقوقها التي يجب أن توصَل إليها، عارفة بواجباتها التي يجب أن تؤدِّيها؛ فهي لا تجهل حقوقها، فتقصر عن المطالبة بها، ولا تجهل واجبها، فيلبس عليها بجعل ما ليس بواجب واجبًا.

- ويجعلهم أمة عقيدة، لا يقرُّ لها قرار؛ إلا بتطبيق الشريعة الإلهية في كل ميدان من ميادين الحياة، وإقصاء القوانين البشرية الضالة الظالمة.

- ويحملهم على القيام بالقوامة على المجتمع، ومراقبة سيره، ومعالجة انحرافه، ومقاومة القوى الخفيَّة التي تعمل على إضلاله وفساده، وذلك بالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهر بكلمة الحق، والقيام بواجب الدعوة إلى الله، وحفظ حقوق الناس الأدبيَّة والماديَّة والسياسيَّة والأخلاقيَّة.

وهؤلاء الحكام يعملون على إغراء العلماء والدعاة بالمال والمنصب والجاه وسائر الحظوظ الدنيويَّة؛ لصرفهم عما هم عليه، وواجب العالم والداعية حينئذ الصبر، ومقاومة الإغراء.

كما يتعرَّض العالم -إذا استعلى علم الإغراء المادي- للتهديد والتخويف والتضييق، وربما أُخرِج من بلده، أو قتِل، أو أُوذِي في نفسه وأهله وماله، ولابدَّ من احتمال هذا الأذى في سبيل الله.

وقد يستطيع الكثيرون تحمُّل الشدَّة والصبر عليها، ولكن لا يستطيعون الصبر أمام هواتف المادَّة ومغرياتها.

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يقول: "ابتُلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضراء؛ فصبرنا، ثم ابتلينا بالسَّرَّاء بعده؛ فلم نصبر"(٤٠).

وسر الصبر على الضرَّاء -والله أعلم-: أن الشدَّة تستنفر قوى الإنسان وطاقاته، وتثير فيه الشعور القوي بالتحدِّيات التي تواجهه، وتشعره بالفقر إلى الله تعالى، ووجوب التضرُّع، وصدق اللجأ إليه، فيهبه الله الصبر.

أما السراء؛ فإن الأعصاب معها تكون مسترخية في الغالب، والنفس موافقة، وهي تخاطب بعض الغرائز الفطريَّة؛ من حب الشهوات؛ من النساء، والبنين، والقناطير المقَنْطَرة من الذهب والفضة، والخيل المسوَّمة، والأنعام، والحرث، فيسترسل الإنسان معها شيئًا فشيئًا؛ دون أن يشعر بأن هذا ينافي الصبر، أو يدرك أنه واقع في فتنة.

ولا شكَّ أن المستهدَفين بهذا العداء المستحكِم هم: المجاهدون في ذات الله، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، الناذرون أنفسهم للدعوة والإصلاح.

✱ ومن ألدِّ أعدائهم: حَمَلَة المذاهب المادية الأرضية؛ من: الشيوعيين، والاشتراكيين، والقوميين، والبعثيين، والعلمانيين، وغيرهم؛ ممن أصبحت عقولهم مناطق نفوذ للشرق أو للغرب في العالم الإسلامي!

وغالب هؤلاء قد تشبَّعوا بتلك المبادئ والأفكار، ورُبُّوا عليها خلال فترة الدراسة والطلب، ومُنُّوا الأماني الباطلة: أن الدولة ستكون لهم، وأنهم سيتمكَّنون من قلب الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكريَّة في العالم الإسلامي وصياغتها وفق ما يريدون.

وهم يدركون أن الخطر الحقيقي على مخطَّطاتهم يأتي من دعاة الإسلام وعلمائه الصادقين، الذين يستفرغون جهدهم وطاقتهم في تجديد أمر الدين لهذه الأمة، وتلافي الانحرافات القائمة، وحماية المسلمين من

الأخطار التي تهددهم.

فيسعون جاهدين للحيلولة بينهم وبين الأمة؛ بتشويه سمعتهم، وإلصاق التهم بهم، ووصفهم بالجمود والتخلُّف والرجعية؛ مستغلِّين في ذلك سائر الوسائل التي يسيطرون عليها؛ من أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، والصحافة، والكتابة، وترويج الإشاعات... وغير ذلك.

أو وصفهم بالتطرُّف، والعنف، والأصولية، وأنهم خطر على أمن البلاد واستقرارها؛ فلابدَّ لكي تعيش الأمة بسلام -زعموا- من استئصال شأفتهم، وقطع دابرهم، وحماية المصالح والمكتَسَبات القومية -زعموا- من خطر تسلُّطهم!

وما زال هذا السيف الإعلامي الخشبي البرَّاق مصلتًا على رقاب الدعاة والعلماء المخلصين؛ بإيعازٍ من قوى الشرق والغرب الخفيَّة والظاهرة، المستبدَّة المغترَّة بقوَّتها الموقوتة!

ولعلَّ هؤلاء المحاربين للدعوة داخلون في قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة حين أشار صلى الله عليه وسلم إلى وقوع شرٍّ محض منكرٍ لا معروف فيه؛ بقوله: **"دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها؛ قذفوه فيها".** قال حذيفة: صفهم لنا يا رسول الله. قال: **"هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا"**(٤١).

قال ابن حجر: "قال القابسي: معناه أنهم في الظاهر على ملَّتنا، وفي الباطن مخالفون"(٤٢).

وإذا كان العلماء عدُّوا من هذه الفروق التي يقف على رأس كل منها داعية من هؤلاء الدعاة الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء(٤٣)؛ فإن من

الممكن أن يلحق بذلك كل من كان يتظاهر بالإسلام، وحقيقة أمره الزندقة والنفاق والخصام، وهذه حال دعاة المذاهب الماديَّة ممن ينتسبون إلى الإسلام.

وقد أرشد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصبر الواجب في هذه الحال، والذي يتمثَّل في:

١- لزوم جماعة المسلمين ولزوم إمامهم، وهذا يومئ إلى محاربة هؤلاء القوم، ومواجهتهم، وردّ باطلهم، والتحذير منهم؛ بل وقتالهم إذا كانت سوق الجهاد قائمة.

٢- فإن لم توجد جماعة يعتزُّ بها الإنسان -مهما ضعُفت وقلَّ شأنها- لمواجهة كيد الدعاة المارقين، ولا إمام يعتصم به الإنسان -بعد اعتصامه بالله- في حرب هؤلاء القوم وقتالهم، ولم يعد في وسعه أن يعمل شيئًا -أي شئ- يدفع به عن الدين؛ فعليه أن يصبر نفسه على الإسلام والسنة، ويحذر من مقاربة هذه الفرق، أو الاغترار بباطلها، حتى إن الإنسان لو مات عاضًّا بأصل شجرة؛ كان خيرًا له من أن يتَّبع أحدًا منهم.

وهذا ما بيَّنه صلى الله عليه وسلم حين سأله حذيفة رضي الله عنه: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: **"فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك"**(٤٤).

✱ ومن أعدائهم: أصحاب البدع والأهواء؛ من الفرق الضالَّة المخالفة للسنَّة، ومن الصوفية والباطنية - بشتى فرقها وشيعها - والمعتزلة وغيرهم.

وهؤلاء منهم من هو على الباطل بلا خفاء، ومنهم من يلبس الحق بالباطل، فيغترُّ الناس بما معه من الحق، ويقبَلون كل ما عنده من الحق

والباطل؛ بلا تمييز.

وهذه فتنة عظيمة، تحتاج إلى صبر ومجاهدة في بيان الحق للناس وتحذيرهم من ضده، وتحتاج إلى وجود قيادات سنِّيَّة ظاهرة يتبعها الناس؛ لأن العامة - في كل زمان - لا تملك التمييز بنفسها؛ بل بواسطة مَن تثق به من العلماء.

ويقف خلف شيوخ البدع والضلالات سوادٌ من الدهماء والعامَّة؛ من المغترِّين بهم، المقلدين لهم بغير علم، فيقف خلف علماء الرافضة -مثلاً- غوغاؤهم ممَّن بدأت منهم الفتنة وإليهم تعود، ويقف خلف شيوخ التصوف مريدوهم من أتباع الطرق المضلَّة عن سبيل الله...

وكثيرًا ما تقف الطوائف الثلاث: الحكام المسلَّطون، ودعاة المذاهب الأرضية الماديَّة، وشيوخ البدعة وأتباعهم، في خندق واحد ضد السنة وأهلها، ويتعاونون في تضييق الخناق على أهل الأثر والاتِّباع، حتى يصل الحال إلى الاغتراب المطبق الذي ينطبق عليه قول الشاعر:

وأيُّ اغْتِرابٍ فَــوْقَ غُرْبَتِنـــا الَّتي
لَها أَضْحَتِ الأعْداءُ فينا تَحَكَّمُ؟!(٤٥)

✱ وهناك الأعداء الخارجيُّون، وأشدهم عداوة وكيدًا وخبثًا اليهود أعداء الله ورسله، وبيدهم - اليوم - مقاليد الإعلام والاقتصاد في كثير من بلاد العالم، وبواسطتها يؤثرون تأثيرًا بالغًا في سياسات الدول الشرقيَّة والغربيَّة، ولهم جمعيَّات سريَّة ومنظَّمات خفيَّة يتحرَّكون باسمها حتى في بعض البلاد التي تتظاهر بحرب اليهود؛ كالماسونية، وشهود يهوه(٤٦)،

ونوادي الروتاري(٤٧)، وبعض الجمعيات النسائية والفنية، وغيرها(٤٨).

والنصارى حلفاء لليهود في حرب الإسلام؛ رغم العداوات التاريخية بين هاتين الطائفتين، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾**(٤٩)؛ أي أن يدهم واحدة على المسلمين؛ لاجتماعهم على الكفر، واتِّفاقهم عليه(٥٠)، وإلا؛ فبين اليهود والنصارى عداوة ظاهرة(٥١).

ودور هاتين الفئتين في حرب الإسلام وملاحقة الدعاة الصادقين والعمل على إبقاء العالم الإسلامي عالمًا متخلِّفًا مستَغلاً دور بارز لا يحتاج إلى بيان، خاصة مع ظهور دعوات السلام، وانعقاد مؤتمراته، وما يستتبع ذلك من عملية (التطبيع) التي ستجعل -إن تمت لا كان ذلك- من العالم الإسلامي سوقًا مفتوحة لأفكار اليهود ودراساتهم وسوَّاحهم وبضائعهم... ليتم لها حكم العالم الإسلامي من خلال مركزيتها المهيمنة اقتصاديًّا وسياسيًّا وإعلاميًّا(٥٢).

وينضم إلى هؤلاء سائر المشركين والكافرين؛ أيًّا كانت مللهم ونحلهم، حيث يرمون المسلمين عن قوس واحدة، وبصفة خاصة: الدعاة الصادقين، والعلماء المجاهدين، والجمعيات والجماعات الإسلامية، وكلما كانت هذه الحركات وأصحابها أصدق في الاتِّباع والالتزام، وأبعد عن الخرافة والبدعة؛ كانت الحرب أشرس، والعداوة أشدّ.

وَلَيْس غَرِيبًا مَا نَرى مِنْ تَصــــارُعٍ
هُوَ البَغْـــيُ لكِنْ بالأسَامِي تَجَدَّدا

وأصبَحَ أحْـــزابًا تَنَـــاحَرُ بَيْنَهـــا
وتَبْدُو بوَجْـــهِ الدِّينِ صفًّا مُوَحَّدًا

ولابدَّ من الصبر:

- صبر النفس على الدين والإسلام، وعدم مفارقته إلى غيره من الأديان، أو إلى الإلحاد وعدم التديُّن بدين ألبتَّة.

- وصبر النفس على التمسُّك بالسنَّة، واتباع الأثر، وعدم الانتقال إلى البدعة، أو التلبُّس بالخرافة، ومجانبة طرائق المبتدعين من الذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّنات.

- وصبر النفس على القيام بأعباء الدعوة، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتصدِّي لفروض الكفايات العامَّة التي تتوقَّف حياة الأمة الدينيَّة عليها، وعدم الالتفات إلى تثبيط المثبِّطين، وخذلان الخاذلين، وخلاف المخالفين؛ فإن هذا شأن الطائفة المنصورة؛ كما وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على إمام الصابرين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

هوامش الفصل الثالث

(١) الحديد: ٢٠.

(٢) "رباعيات الخيام" ضمن مجموعة "ديوان أحمد رامي" (ص ٤١٣).

(٣) "ديوان إيليا أبو ماضي" (ص ٢٠٢).

(٤) محمد: ٤.

(٥) البقرة: ٢٥٣.

(٦) رواه مسلم عن عياض بن حمار، وسبق تخريجه في الكتاب الأول.

(٧) العنكبوت: ١٠.

(٨) الحج: ١١.

(٩) آل عمران: ٢٠٠، وانظر: "تفسير ابن كثير" (١/٤٤٤)، و"مدارج السالكين" (٢/١٥٩).

(١٠) الأحزاب: ٢٢، وانظر: "أضواء البيان" للشنقيطي (٦/٥٧٤).

(١١) العنكبوت: ١-٣.

(١٢) انظر: "معجم مقاييس اللغة" (٤/٤٧٣).

(١٣) روى هذا الحديث:

- الترمذي في (٣٧- كتاب الزهد، ٥٦- باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٨، ٤/٦٠١)، وقال: "هذا حديث حسن

صحيح، وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة بن اليمان: أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل".

- والنسائي في " الكبرى" (٤٢- كتاب الطب، ٤- أي الناس أشد بلاء؟ ل ٩٧ ب).

- وابن ماجه في (٣٦- كتاب الفتن، ٢٣- باب الصبر على البلاء، رقم ٤٠٢٣، ٢/١٣٣٤).

- والدارمي في (٢٠- كتاب الرقاق، ٦٧- باب في أشد الناس بلاء، رقم ٢٧٨٦، ٢/٢٣٨)، ولفظه: "فإن كان في دينه صلابة زيد صلابة، وإن كان في دينه رقة؛ خفف عنه".

- وأحمد في "المسند" (١/١٧٢ و١٧٤ و١٨٠ و١٨٥)، وزاد في الموضع الأول بعد: "الأنبياء": "ثم الصالحون".

- وفي "الزهد" له (ص ٥٣) كروايته الأولى في "المسند".

- وابن سعد في (ذكر شدة المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ٢/٢٠٩-٢١٠).

- والطحاوي في "المشكل" (باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوابه سعد بن أبي وقاص لما سأله: من أشد الناس بلاء؟ ٣/٦١)؛ كرواية أحمد، ثم كرواية الجماعة.

- وأبو يعلى في "مسنده" (مسند سعد بن أبي وقاص، رقم ١٤٢، ١٤٣/٢).

- وابن حبان؛ كما في "الموارد" (٦- كتاب الجنائز، ٢- باب أي الناس أشد بلاء؟ رقم ٦٩٩ و ٧٠٠، ص ١٨٠).

- الحاكم في (كتاب الأيمان، ٤١/١) وسكت عنه هو والذهبي.

- وأبو نعيم في (ترجمة زيد بن الخطاب، رقمها ٧٣، ٣٦٨/١).

- والبيهقي في "السنن" (كتاب الجنائز، باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه من الأمراض، ٩٣/٣).

- والخطيب البغدادي في (ترجمة محمد بن يزيد بن طيفور، رقمها ١٤٩٦، ٣٧٨/٣).

- والبغوي في (كتاب الجنائز، باب شدة المرض، رقم ١٤٣٤، ٢٤٤/٥).

* **كلهم من طريق** عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن أبيه.

- وعاصم بن بهدلة: هو ابن أبي النجود، المقرئ، الكوفي، صدوق، له أوهام.

انظر: "التهذيب" (٣٨/٥)، "التقريب" (٣٨٣/١).

- ومصعب بن سعد بن أبي وقاص: ثقة.

انظر: "التهذيب" (١٦٠/١٠)، "التقريب" (٢٥١/٢).

---

* **ورواه عن عاصم جماعة كثيرة من الثقات؛** نحو: حماد بن سلمة عند الطحاوي والحاكم وأبي نعيم والبيهقي، وحماد بن زيد عند الترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد والطحاوي والحاكم، وهشام الدستوائي عند أحمد وأبي نعيم والخطيب والبيهقي، وشيبان بن عبد الرحمن النحوي عند الطحاوى والحاكم والبيهقي، وشعبة عند أحمد والطحاوي وأبي نعيم والبيهقي، وغيرهم.

* **فالحديث بهذا الإسناد حسن.**

* **ثم إن عاصمًا لم ينفرد به؛ بل تابعه** سماك بن حرب عن مصعب عن أبيه، رواه الطحاوي في "المشكل" (باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوابه سعد بن أبي وقاص، ٦٢/٣) من طريق علي بن عبد الرحمن بن محمد بن المغيرة الكوفي؛ قال: حدثنا منجاب بن الحارث التميمي الكوفي؛ قال: حدثنا شريك بن عبد الله النخعي عن سماك (فذكره).

- وعلي بن عبد الرحمن: ثقة.

انظر: "التهذيب" (٣٦٠/٧)، "االتقريب " (٤٠/٢).

- ومنجاب بن الحارث: ثقة.

انظر : "التهذيب" (٢٩٧/١٠)، "التقريب" (٢٧٤/٢).

- وشريك بن عبد الله: صدوق، يخطئ كثيرًا، وتقدَّم.

- وسماك هو ابن حرب: صدوق، تغير بأخرة، وروايته عن عكرمة مضطربة.

انظر: "التهذيب" (٢٣٢/٤)، "التقريب" (٣٣٢/١).

* ورواه العلاء بن المسيب عن أبيه عن سعد بن أبي وقاص أو العلاء عن مصعب عن أبيه:

- رواه الحاكم في (كتاب الإيمان، ٤٠/١)، وفي سياق الإسناد قال: "عن العلاء بن المسيب عن مصعب بن سعد عن أبيه "، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين"، ولم يذكره الذهبي.

- وابن حبان؛ كما في "الموارد" في (٦- كتاب الجنائز، ٢- باب أي الناس أشد بلاء؟ رقم ٦٩٨، ص ١٨٠)، وفيه: "عن العلاء ابن المسيب عن أبيه عن سعد".

وكأن الأقرب - والله أعلم - رواية ابن حبان، إذ لم أجد من ذكر للعلاء رواية عن مصعب؛ بل ذكروا له رواية عن أبيه، كما ذكره المزي وغيره.

*** ورجال إسناد ابن حبان ثقات، وهم:**

- أحمد بن علي بن المثنى: هو أبو يعلى الموصلي، صاحب "المسند"، الإمام، الحافظ.

انظر: "الثقات" (٥٥/٨)، "سير أعلام النبلاء" (١٧٤/١٤).

ولم أجد الحديث بهذا الإسناد في "مسنده" المطبوع، فلعله في "المسند الكبير" الذي رواه أبو عمرو بن حمدان عنه.

انظر: "السير" (١٤/١٨٠).

- وإسحاق بن إسماعيل الطالقاني: انظر: "التهذيب" (١/٢٢٦)، "الكاشف" (١/٦٠).

- وجرير بن عبد الحميد: انظر: "التهذيب" (٢/٧٥)، "التقريب" (١/١٢٧).

- والعلاء بن المسيب: مضى.

- وأبوه: هو المسيب بن رافع: انظر: "التهذيب" (١٠/١٥٣)، "التقريب" (٢/٢٥٠).

* **فهذا الإسناد صحيح،** وبه يرتقي الإسناد الأول إلى الصحة لغيره.

* **وللحديث شواهد كثيرة**، ستأتي بعد قليل بإذن الله.

(١٤) الوعك: هي الحمى أو ألمها. انظر: "النهاية" (٥/٢٠٧).

(١٥) التحوية: أن يدير كساءً حول سنام البعير، ثم يركبه، وتأتي بمعنى: الجمع والضم، ولعله الأليق هنا. وانظر: "النهاية" (١/٤٦٥).

(١٦) روى هذا الحديث:

- ابن ماجه في (٣٦- كتاب الفتن، ٢٣- باب الصبر على البلاء، رقم ٤٠٢٤، ٢/١٣٣٤)، وقال البوصيري في "الزوائد": "إسناده صحيح، رجاله ثقات، وله شاهد من حديث مصعب بن سعد عن أبيه". "مصباح الزجاجة" (٣/٢٤٨).

- والبخاري في "الأدب المفرد" (٢٢٩- باب هل يقول المريض: إني وجع؛ شكايةً؟ رقم ٥١٠، ١/٦٠١).

- والطحاوي في (باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان يصيبه من الوعك، ٣/٦٤).

- وابن سعد في "الطبقات" (ذكر شدة المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/٢٠٨).

- والحاكم في (كتاب الإيمان، ١/٤٠)، وسكت عنه، ولم يذكره الذهبي، وفي (كتاب الرقاق، ٤/٣٠٧)، وقال: "صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وفي روايتي الحاكم زيادة: "ثم العلماء"؛ بعد قوله: "الأنبياء"، وزاد: "وإن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل".

- والبيهقي في (كتاب الجنائز، باب ما ينبغي لكل مسلم أن يستشعره من الصبر على جميع ما يصيبه من الأمراض والأوجاع والأحزان، ٣/٣٧٢) كرواية الحاكم.

* **كلهم من طريق** هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد.

- وهشام بن سعد: صدوق، حسن الحديث، له أوهام، وذكر أبو داود أنه أثبت الناس في زيد بن أسلم.

انظر: "التهذيب" (٣٩/١١)، "الكاشف" (١٩٦/٣)، "التقريب" (٣١٨/٢).

- وزيد بن أسلم: ثقة، له تدليس قليل محتمل.

انظر: "التهذيب" (٣٩٥/٣)، "التقريب" (٢٧٢/١)، "تعريف أهل التقديس" (ص ٣٧).

- وعطاء بن يسار: ثقة، فاضل.

انظر: "التهذيب" (٣١٧/٧)، "التقريب" (٢٣/٢).

* **فالحديث بهذا الإسناد صحيح،** وإن كان فيه هشام بن سعد، وحديثه حسن؛ إلا أنه رواه عن زيد بن أسلم، وهو ثبت فيه؛ بل أثبت الناس فيه؛ كما قال أبو داود، مع وجود الشواهد؛ كما سبق، وكما سيأتي.

(١٧) رواه: البخاري (٣/٧، ٧، ٨، ٩)، ومسلم (١٩٩١/٤)، والنسائي في "الكبرى" (ل ٩٧ ب)، والدارمي (٢٢٤/٢)، وأحمد (٤٥٥/١)، وأبو داود الطيالسي (ص٤٩)، وابن سعد (٢٠٧/٢ و٢٠٨)، وابن أبي شيبة (٢٢٩/٣)، وهناد بن السري في "الزهد" (٢٤١/١)، والطحاوي (٦٣/٣)، وابن حبان؛ كما في "الموارد" (ص١٨٠)، والبيهقي (٣٧٢/٣)، والبغوي (٢٤٢/٥ و٢٤٣).

---

(١٨) وهو الذي أشار إليه الترمذي بقوله: "وفي الباب عن أخت حذيفة".

- ورواه النسائي في "الكبرى" (ل ٩٧ ب).

- وأحمد في "المسند" (٣٦٩/٦)، وسماها فاطمة، وفيه: "ثم الذين يلونهم (ثلاث مرات)"، وقال الهيثمي في "المجمع " (٢٩٢/٢): "وإسناد أحمد حسن".

- وهناد بن السري في "الزهد" (٢٣٩/١).

- والطبراني في "الكبير" (ترجمة خولة بنت اليمان العبسية أخت حذيفة، ويقال: فاطمة، رقم ٦٢٦- ٦٣١، ٢٤/٢٢٤- ٢٢٦).

(١٩) "في ظلال القرآن" (٢٧٢٠/٥).

(٢٠) البقرة: ٢١٤.

(٢١) روى هذا اللفظ من الحديث:

- البخاري في (٥٦- كتاب الجهاد، ١١- باب قول الله تعالى: **(قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين)**، ٢٠٥/٣)، وفي (١٠٢- باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة، ٤/٢-٣).

- ومسلم في (٣٢- كتاب الجهاد والسير، ٢٦- باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، رقم ٧٤، ١٣٩٣/٣).

- وأحمد في "المسند" (٢٦٢/١- ٢٦٣).

- وأبو عوانة في (كتاب الجهاد، بيان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، ٤/١٧٦ - ١٩٠).

(٢٢) الأنعام: ٣٤.

(٢٣) الأنعام: ٣٥.

(٢٤) انظر: "معجم مقاييس اللغة" (٣/٣٢٩).

(٢٥) البيت لعنترة بن شداد؛ كما في: "ديوانه" (ص ٢٦٤)، و"اللسان" (٤/٤٣٨).

ومعنى البيت: "حبست نفسًا صابرة".

(٢٦) انظر: "مدارج السالكين" (٢/١٥٦).

(٢٧) انظر: "مدارج السالكين" (٢/١٥٦).

(٢٨) انظر: "فتاوى شيخ الإسلام" (١٥/١٣٨ وما بعدها)، "دقائق التفسير" (٣/٤٣٦)، "مدارج السالكين" (٢/١٥٦).

(٢٩) الحديث حسن بشاهده، وهو حديث عتبة بن غزوان، ولفظه: "إن من ورائكم أيام الصبر، للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم". قالوا: يا نبي الله! أو منهم؟ قال: "بل منكم".

وقد سبق تخريجهما في الباب الثاني، الفصل الثاني: الطائفة المنصورة.

(٣٠) روى هذا الحديث:

- الترمذي في (٣٤- كتاب الفتن، ٧٣- باب، رقم ٢٢٦٠) من طريق إسماعيل بن موسى الفزاري بن بنت السدي الكوفي عن عمر ابن شاكر عن أنس بن مالك به، وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه، وعمر بن شاكر شيخ بصري، قد روى عنه غير واحد من أهل العلم".

- وابن عدي في "الكامل" (ترجمة عمر بن شاكر، ١٧١١/٥) من طريق الفضل بن عبد الله عن إسماعيل به.

*** وفي إسناده:**

إسماعيل بن موسى الفزاري: صدوق، يتشيَّع.

انظر: "التهذيب" (٣٣٥/١)، "الكاشف" (٧٨/١).

- وعمر بن شاكر: خلاصة القول فيه أنه ضعيف عند الجمهور.

انظر: "الكامل" (٧١١/٥)، "الميزان" (٢٠٣/٣)، "التهذيب" (٤٥٩/٧)، "التقريب" (٥٧/٢).

* وهذا الحديث عند الترمذي بإسناد ثلاثي، ولا يوجد في "سننه" حديث ثلاثي غيره، وهو رباعي عند ابن عدي.

*** وهو حديث ضعيف بهذا الإسناد.**

*** ولكن له شواهد يثبت بها؛** كحديث: أبي ثعلبة، وأبي هريرة، وابن مسعود؛ رضي الله عنهم.

---

(٣١) هو حديث حسنه الترمذي، وصححه ابن حبان والحاكم والذهبي، وسبق تخريجه وبيان ضعف إسناده منفردًا؛ لأن فيه عمرو بن جارية اللخمي، وهو مقبول، ولعل هؤلاء الأئمة حسنوه أو صححوه لشواهده.

(٣٢) روى هذا الحديث: الإمام أحمد في مسنده (٣٩٠/٢) من طريق يحيى بن إسحاق وحسن، كلاهما عن ابن لهيعة عن أبي يونس عن أبي هريرة، وزاد: "قال حسن في حديثه : خبط الشوك ".

- ويحيى بن إسحاق هو البجلي، أبو زكريا السيلحيني: ثقة.

انظر: "التهذيب" (١٧٦/١١)، "الكاشف" (٢١٩/٣).

- وحسن: هو ابن موسى الأشيب- فيما أرى-، وهو ثقة أيضًا.

انظر: "التهذيب" (٣٢٣/٢)، "التقريب" (١٧١/١).

- وابن لهيعة: ضعيف في غير حديث العبادلة عنه، ومضى.

- وأبو يونس: هو سليم بن جبير الدوسي المصري، مولى أبي هريرة، ثقة.

انظر: "التهذيب" (١٦٦/٤)، "التقريب" (٣٢٠/١).

* **فهذا الإسناد ضعيف** لضعف ابن لهيعة، ولكنه يصلح شاهدًا للحديث الأصل.

(٣٣) أخرج هذا الحديث:

- أبو بكر الكلاباذي في "مفتاح المعاني " (ق ٢/١٨٨).
- والضياء المقدسي في "المنتقى من مسموعاته بمرو" (١/٩٩).

من طريقين عن حميد بن علي البختري: حدثنا جعفر بن محمد الهمداني: حدثنا أبو إسحاق الفزاري عن مغيرة عن إبراهيم عن الأسود.

* ذكر ذلك كله الشيخ ناصر الدين الألباني في "سلسلة الأحاديث الصحيحة" (٦٨٣/٢)، وقال: "مَن دون أبي إسحاق -واسمه إبراهيم بن محمد: ثقة حافظ- لم أعرفهم".

(٣٤) هو علي بن محمد (ويعرف بسلطان) الملا الهروي القاري، ولد في هراة، وسكن مكة، وتوفي بها، فقيه حنفي، له عناية بالحديث وشرحه، وله تصانيف؛ منها: "شرح المشكاة"، و"تذكرة الموضوعات"، و"الرد على فصوص ابن عربي"، توفي عام (١٠١٤ هـ).

انظر: "خلاصة الأثر" للمحبي (١٨٥/٣)، "الأعلام" (١٢/٥-١٣).

(٣٥) "مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح" (٩٧/١٠).

(٣٦) هو الإمام أبو محمد القاسم بن فيّرة بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي، إمام القراء، وكان ضريرًا، ولد بشاطبة في الأندلس سنة (٥٣٨هـ)، وتوفي بمصر سنة (٥٩٠ هـ)، وله قصيدة في القراءات سماها "حرز الأماني"، وتعرف بـ"الشاطبية"، وكان آية في الحفظ.

انظر: "معرفة القراء الكبار" للذهبي (٢/٥٧٣)، و"التكملة لوفيات النقلة" للمنذري (١/٢٠٧)، وغيرهما.

(٣٧) "حرز الأماني " مع شرحها "إبراز المعاني" لأبي شامة المقدسي (ص ٥٥).

(٣٨) يوجد أكثر من عالم يعرفون بهذه النسبة؛ منهم: إبراهيم بن عمر ابن إبراهيم بن خليل، أبو إسحاق الجعبري، له نظم ونثر ومصنفات كثيرة معظمها مختصرات، وله شرح لـــ"الشاطبية"، ولعل هذا القول فيه، توفي عام (٧٣٢ هـــ).

وانظر: " البداية والنهاية" (١٤/١٣٨)، "الأعلام" (١/٥٥).

(٣٩) ذكره في "المرقاة" (١٠/٩٨).

(٤٠) روى هذا الأثر: الترمذي في (٣٨- كتاب صفة القيامة، ٣٠- باب، رقم ٢٤٦٤، ٤/٦٤٢) من طريق قتيبة: حدثنا أبو صفوان عن يونس عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن ابن عوف به، وقال: "هذا حديث حسن".

- وقتيبة: هو ابن سعيد بن جميل الثقفي، أبو رجاء البغلاني: ثقة، ثبت.

انظر: "التهذيب" (٨/٣٥٨)، "التقريب" (٢/١٢٢).

- وأبو صفوان: هو عبد الله بن سعيد بن عبد الملك الأموي: ثقة.

انظر: "التهذيب" (٥/٢٣٨)، "التقريب" (١/٤٢٠).

- ويونس: هو ابن يزيد الأيلي، ثقة، قال ابن حجر في "الفتح": "ثقة، حافظ"، وقال الذهبي: " أحد الأثبات".

انظر: "الكاشف" (٣/٢٦٧)، "التهذيب" (١١/٤٥٠)، "فتح الباري" (٣/٥٥١).

- والزهري: هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، متفق على جلالته وإتقانه، ومضى.

- وحميد بن عبد الرحمن: هو ابن عوف الزهري، ثقة.

انظر: "التهذيب" (٣/٤٥)، "التقريب" (١/٢٠٣).

*** فهذا الأثر بهذا الإسناد صحيح.**

(٤١) اللفظ في الصحيحين وغيرهما، وسبق تخريجه.

(٤٢) "فتح الباري" (١٣/٣٦).

(٤٣) انظر: "فتح الباري" (١٣/٣٦).

(٤٤) طرف من حديث حذيفة في الصحيحين، وسبق تخريجه في غير هذا الكتاب من السلسلة.

(٤٥) البيت لابن القيم في كتاب "حادي الأرواح" (ص ٧)، وقد استعرته لمعنى آخر غير معناه الأصلي.

(٤٦) كلمة (يهوه) تقابل كلمة (الله) في التوراة، و (شهود يهوه) جمعية عالمية دينية وسياسية ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر،

وهي تقوم بنشاط مكثف لفرض اعتقادها على العالم، وتبشر بما يسمى العالم الجديد، وهي فرقة نصرانية متأثرة بالديانة اليهودية، وتسعى لإضعاف وتخريب الإسلام والنصرانية لمصلحة اليهود، ومقرها الرئيسي في الولايات المتحدة. انظر: "شهود يهوه" لمحمد حرب (ص ٥ و٩).

(٤٧) وهي منظمة ماسونية، شكلت عام (١٩٠٤م) في شيكاغو، ولها فروع في أكثر بلاد العالم، ومن أشهر أعضائها هيلتون اليهودي صاحب الفنادق المنتشرة في أكثر مدن العالم، ومهمة فنادقه السيطرة على اقتصاد البلاد التي توجد بها، والعمل على نشر الماسونية، وعقد اجتماعات الماسون الدورية فيها.

انظر: "الماسونية"؛ أقدم الجمعيات السرية وأخطرها" بدون مؤلف (ص ٤٠- ٤١).

(٤٨) انظر لمزيد من التوسع في هذا الموضوع الخطير، ومن أجل نظرة متوازنة معتدلة: "المخططات الصهيونية" لمحمد قطب، "الصهيونية... حذار" تأليف: يوري إيفانوف، ترجمة: ماهر عسل، "الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي" لماجد كيلاني، "الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار" لمحمد عطية خميس، وغيرها.

(٤٩) المائدة: ٥١.

(٥٠) انظر: "تفسير البغوي" (٢/٤٤)، و "تفسير الكشاف" للزمخشري (١/٣٤٣).

---

(٥١) انظر: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" (ص ٤٥-٤٧)، "أضواء على المسيحية" لمتولي يوسف شلبي.

(٥٢) انظر للأهمية: كتاب "التطبيع استراتيجية الاختراق الصهيوني" لغسان حمدان، وكتاب "الاستراتيجية الإسرائيلية لتطبيع العلاقات مع البلاد العربية" لمحسن عوض؛ ضمن سلسلة "الثقافة القومية" التي يقوم على طباعتها مركز دراسات الوحدة العربية، وهو كتاب مهم.

* * *